خاتمة

يستهل هذا الكتاب فصوله بمناقشة موجزة حول صعوبة تعريف مصطلح "العالم العربي"، ليستقر إلى تعريف يقترب لما أطلق عليه الجغرافيون العرب "الجزر العربية". ولكن كما يتضح لنا من الفصول السابقة من الكتاب، فإن الرحالة البريطانيين لم ينظروا إلى العالم العربي على أنه مجرد كيان جغرافي، وإنما نظروا إليه كعالم عربي وليد بكل ما فيه من أساطير، ورموز، ومفردات اكتسبها عبر اتصاله ببريطانيا طيلة قرون مديدة. وعلى الرغم من أن هؤلاء الرحالة الذين توجهوا إلى الجزيرة العربية قد واجهوا عالمًا عربيًا حقيقيًا، إلا أنهم ما استطاعوا مطلقًا أن يطرحوا من أذهانهم تلك الصورة الخيالية الزائفة عن الجزيرة العربية، ومن ثم جاء تصويرهم للمنطقة مزيجًا من الواقع والخيال.

وعبر ستة من أكثر الروايات شهرةً في أدب الرحلات على مدار المائة عام الماضية، تناولنا عددًا من الوقائع والموضوعات التي يبدو أنها تشكل رؤية البريطانيين العامة تجاه العالم العربي. إلا أن هذه الدراسة لا تهدف إلي تفنيد وجهة النظر البريطانية عن العالم العربي أو تصحيحها، بل هي محاولة تهدف إلى تناول مفاهيم الرحالة البريطانيين حول المنطقة تناولاً موضوعيًا، غير أن اختيار عددٍ محددٍ من قائمة الأعمال الطويلة التي تناولت هذا الموضوع وتحليل آراء مؤلفيها لا يعد مادة كافية لإصدار حكم. ومع ذلك، فقد أمكن التوصل إلى بعض النتائج العامة من خلال ملاحظات معظم الرحالة الذين تم إيفادهم إلى العالم العربي خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

لقد تشكلت رؤية معظم الرحالة البريطانيين للجزيرة العربية من خلال مجموعة من ردود الأفعال والالتباسات الناتجة عن ذلك الحاجز المنيع بين العالمين المسيحي والإسلامي؛ حيث كان هناك اتجاه عدائي متواصل رسخ في أذهان أولئك الرحالة، نابعًا على وجه التحديد من قناعتهم المسبقة بأن الشرق المسلم كان يناصبهم العداء على الدوام. أضف إلى ذلك أن الإسلام في نظرهم كان "مجموعة من البدع" التي اصطنعها محمد ضد

المسيحية. لقد توطن هذا الاتجاه التقليدي لدى البريطانيين تجاه الإسلام والعالم العربي وقوي خلال فترات الإمبريالية البريطانية.

كذلك كان التوسع الإمبريالي الذي نشأ من أوروبا أحد العوامل التي ساهمت في تشكيل نظرة هؤلاء الرحالة البريطانيين، فالإمبريالية في جوهرها تهدف إلى استغلال الشعوب الأخرى لصالح أمة بعينها. وقد ولَّد هذا الاتجاه لدى الرحالة موضع الدراسة الشعور بالسمو على العرب. وكان المسئولون الأوربيون الذين يعملون في العالم العربي إبان القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين على قناعةٍ بأن الحكم الأوربي حكمٌ له مبرراته الأخلاقية والسياسية، وأنهم إذا ما أخفقوا في تحويل الناس إلى المسيحية، فعلى الأقل يجب أن يكون الإشراف مسيحيًا، وحتى ولو لم يكن هؤلاء المشرفون الأوربيون مسيحيين حقًا، فهم في كل الأحوال أسمى من العرب؛ لأنهم في نهاية الأمر أوروبيون. وكان هذا الاعتقاد هو المسئول عن عزمهم الشديد على تحسين أوضاع الشعوب العربية شاءت أم أبت.

كذلك فإن العوامل التي كانت وراء التوسع الإمبريالي بين الأمم الأوروبية قد أزكت فيهم إحساسًا بالسمو. وقد اتسمت الحركة الإمبريالية ككل خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين بما يلي: (أ) التطور التقني، (ب) القوة العسكرية، (جـ) حافز لتحسين أوضاع الآخرين من وجهه النظر الأوروبية. وقد أدى التطور التقني في أوروبا إلى التفوق العسكري ووفرة في الثروة، وكلما استمرت الصناعات في إنتاج المزيد والمزيد، تزايدت الحاجة كذلك إلى اكتشاف المزيد من السبل والمصادر الجديدة للمواد الخام والتحكم فيها. وقد وقف هذا وراء ضرورة توسيع حدود إمبراطورياتهم. وفي سبيل إخفاء أهدافهم التجارية الخسيسة (وربما أيضًا ليتهربوا من وخذ ضمائرهم) فقد اعتبروا أنفسهم فرسان الإصلاح الذين يحملون على عاتقهم مسئولية نقل فضائل الحضارة إلى الشعوب شبة البربرية.

ومع ذلك، كانت نظرة القوى الإمبريالية للعرب مختلفة نوعًا عن نظرتهم للأمم الشرقية التي لا تدين بالإسلام، مثل الصينيين، والهندوسيين والبوذيين في الهند وبورما، وكذلك سكان أفريقيا الأصليين، واستراليا وأمريكا. لقد كان المسلمون، على مدى قرون

عديدة، هم الشعوب الأجنبية الوحيدة المعروفة للغرب حق المعرفة، ولهذا كانت نظرتهم للمسلمين محددةً بعض الشيء، كما كانوا على علم بما تمتع به المسلمون من تفوق ثقافي وعسكري في القرون الأولي، فلم يكن ممكنًا تجاهل العرب، كآخرين غيرهم، على اعتبار أنهم مخلوقات أدنى منزلة. لذا، كان أن انصب اهتمام هؤلاء المراقبين البريطانيين للمجتمع العربي على النموذج الاجتماعي والثقافي لهذا المجتمع، والذي بدا على سبيل المثال في أسلوب حياتهم الجنسية، وعدم المساواة بين الجنسين، وتعدد الزوجات، وذلك في محاولة لإثبات أن العرب كانوا شعوبًا متخلفة وفي حاجةٍ إلى التنوير. كما أنه لم يغب مطلقًا عن أذهان أولئك المراقبين البريطانيين للمشهد العربي أن مسلمي الشرق كانوا في الماضي قوة سياسية لا يُشق لها غبار، استطاعت أن تجرِّع العالم المسيحي كأس الهزيمة في العديد من المعارك التي استمرت لفترات طويلة. وعلى الرغم من أنهم أقنعوا أنفسهم بأن مسلمي الشرق هم شعوب متخلفة ثقافيًا ودينيًا، إلا أنهم ما استطاعوا التخلص من الذكريات الأليمة التي خلفتها فيهم القوة العسكرية الهائلة للإسلام، ولم يسفر ذلك إلا عن عدائهم للعالم العربي.

وعلى الرغم من اختلاف ملاحظاتهم عن العرب، إلا أنهم تبنوا موقفًا موحدًا من حيث تعاملهم مع المجتمع العربي؛ حيث اعتبروه مجتمعًا عفا عليه الزمن، يتمسك بتقاليد وأساليب حياة بالية. وحيث كان هؤلاء الرحالة ينتمون إلى مجتمع صناعي، فقد وجدوا العرب لا يزالون يعيشون في عصر ما قبل العلم. وقد ذهب بعضهم، خاصة بلجراف وداوتي، في تصوير المنطقة بمفردات أرجعتها إلى العصور الوسطى، بينما حاول بيرتون أن يجد فيها إجابات لما دار في خلده من تساؤلات حول علم الإنسان. ومع ذلك، كان وصف هؤلاء الرحالة لمصر أفضل بعض الشيء وأكثر تعاطفًا، وكان ذلك مرجعه في الأساس أن مصر ارتبطت في أذهانهم بالحضارة الفرعونية أكثر من ارتباطها بالحضارة الإسلامية. وهناك سببٌ آخر يتعلق بالسهولة التي كانت تلقاها بعثاتهم الاستعمارية في تنفيذ أعمالها بين المصريين.

وقد خلّفت دراسة هذه الروايات من أدب الرحلات انطباعات مشوشة ومتناقضة؛ حيث لا تفضي أي من هذه الروايات إلى صورة نمطية واضحة ومتكاملة بشكل جيد عن

العرب. ولكن على العكس من ذلك، نجد هناك عددًا من النماذج النمطية الصغيرة التي نجد بينها القليل من أوجه الشبه؛ فقد قام كتاب الرحلات الغربيين كافةً بتصنيف العرب في مرتبة أدنى من الناحية العرقية والثقافية. بل لقد ذهب بيرتون إلى حد الاستدلال ببعض ملامحهم الجسدية ليبرهن على بدائيتهم، مستغلاً ما لديه من معرفة في علم الإنسان ليؤكد وجهة النظر تلك. وكان بلجراف هو الوحيد الذي اعتبرهم أسمى من الأجناس الشرقية الأخرى، إلا أنه لم يستطع تقبل فكرة مساواتهم بالشعب الإنجليزي. أما بلجراف وداوتي فقد اعتبروهم مجرد مجموعة من الجهلة الوثنين، لا يعلمون شيئًا عن الحضارة والثقافة، فالهمجية المفترضة في العرب فكرة مكررة في مؤلفات هؤلاء الرحالة الثلاثة. وفي هذا الإطار، يبدو الأمر أفضل مع لورانس وفيلبى، ولكن تبقى حقيقة أنهم أشاروا إلى العرب بنفس اللهجة المتعالية، ولم يحاولوا مطلقًا مقارنة أنفسهم بهم. ففي مؤلفاتهم، يظهر العرب كعنصر لا يمكنه التطور والازدهار إلا تحت الرعاية الحنونة للبريطانيين، وما كان إعجاب لورانس بفيصل، وإعجاب فيلبي بابن سعود إلا نتيجةً ثانوية طبيعية لهذا المفهوم. ولكن كما ذكر حوراني، فإن إعجابهم كان من نوع غريب؛ حيث لم يكن قائمًا على الحب أو الصداقة. ويلاحظ المرء شغفًا خاصًا عند هؤلاء الرحالة لإبراز أدق الصفات "الغربية" التي يكتشفونها عند بعض العرب والإشادة بها، وهذا ما فعلوه في حالة فيصل. وحتى فيما يتعلق بأشخاص من نوعية فيصل، كان من الطبيعي أن يقفوا على تأثير عقيدتهم عليهم. وبالنسبة لهم، كانت هذه تجربةً فريدةً حيث رأوا كيف أن جميع سكان هذه المنطقة يتمسكون بالدين أيما تمسك، ويسوسون حياتهم في ضوء أحكامه.

ولكن لفخرهم بسلالتهم وديانتهم، فهم لم يستطيعوا سوى التعامل بشكل عدائي ضد المعتقدات الاجتماعية والدينية للعرب التي اعتبروها أدنى مكانةً من عقيدتهم وأمتهم؛ ومن ثم كان الصراعٍ السياسي والديني مع مسلمي الشرق. فقد وصموا الإسلام بأنه دين زائف قائم على معتقدات خرافية، مما يجعله ملائماً لتخلف العرب. وكانوا يجزمون أن هذا الدين إذا خضع للدراسة العلمية فسوف يفقد مصداقيته تمامًا، كما كانوا يرون أن الجهل هو السبب الأساسي الذي جعل من العرب أتباعًا عميانًا لمحمد. وقد وجه كل منهم على حد سواء انتقاده لأسلوب العبادة الإسلامية، وخاصة فيما يتعلق بشعائر الحج، حيث

أثارت شفقتهم مشقات الحجيج في كل من مكة والمدينة خلال موسم الحج، وأقنعوا أنفسهم أنه من الإحسان أن تبذل الجهود لتخليص هؤلاء التعساء من تلك العقيدة. ووسط هذه التعليقات العدائية الصريحة ضد الإسلام، عبر هؤلاء الرحالة، من حين لآخر، عن تعاطفهم مع أولئك العرب البسطاء، الذين يعانون محنة صيام شهر رمضان في شهور الصيف الحارة، واعتبروا أنه من الواجب عليهم تحرير العرب من الطغيان المزعوم لعقيدة "تعج بالخرافات".

وعلى الرغم من أنهم لم ينظروا إلى الإسلام نظرةً موضوعية، إلا أنه كان هناك على الأقل مجموعة منهم ممن تأثروا بشدة بخاصية التوحد التي استطاعت أن تجمع بين القبائل العربية المختلفة. فهذه الخاصية بالذات هي التي ساعدت على جعل الوهابية قوة سياسية كبيرة في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية.

وحيث إن كتاب أدب الرحلات هؤلاء كانوا على وعي تام بهويتهم البريطانية المسيحية، فليس من الدهشة أن نجد في رواياتهم قدرًا كبيرًا من العداء لنبي الإسلام. إن لهذا الدين الذي انتمى إليه هؤلاء الرحالة تراثًا طويلاً في وصف النبي محمد بأنه معادٍ للمسيح ومدعٍ للنبوة، هذا على الرغم من أن حقيقة الإسلام كانت جليةً أمامهم تمامًا أثناء وجودهم في جزيرة العرب، ومع ذلك نادرًا ما شعروا بأن عليهم دراسته بموضوعية، كما أنهم لم يحاولوا مطلقًا التأكد من صحة الرأي الأوروبي الشائع حول نبي الإسلام. وصحيحٌ أنهم لم يستخدموا ألقاب العصور الوسطي الأوروبية مثل " النبي الكاذب"، "عدو المسيح "، "الدجال " أو "المسيح الكذاب"، إلا أنهم مع ذلك لم يكونوا على استعدادٍ للاعتراف بأن رسالته رسالة إلهية. فقد اعتبر بيرتون أن قبيلة النبي جماعة من غير المتحضرين والبربريين، بينما رأى لورانس أن النبي محمدًا قام بنشر تعاليم رسالته من أجل كسب القوة السياسية لصالح قبيلته، أما "فيلبي" فلم يكن متأكدًا مما إذا كانت هناك أي حكمة في تعاليم نبي الإسلام. ومع ذلك، فقد كان هؤلاء الكُتاب مبهورين بالتأثير الذي أحدثته تعاليم وشخصية هذا النبي، رغم فشلهم في الوصول إلى تفسير يوضح هذه الظاهرة بما يتفق مع آرائهم في النبي.

وقد اصطبغت آراءهم عن القرآن الكريم بنفس الصبغة؛ فلم يعتبره أحد منهم كتابًا

منزلاً من عند الله أو حتى كتابًا مؤلفًا بشكل جيد. لقد اعتبره بيرتون مؤلفًا محيِّرًا يعج بالأخطاء، حتى أنه شكك في أن الصورة التي عليها القرآن الآن ليست كتلك التي كانت أيام النبي، كما أنه انتقد القوة الخارقة المزعومة التي كان علماء الدين المسلمين – على حد قوله – يصفون بها النبي. أما داوتي فلم يكن يشعر إلا بصداع في الرأس عند سماع هذا "المزيج من آي القرآن"، بينما تجاهله فيلبي معتبرًا إياه كتابًا عاديًا ليس به ما يميزه عن سائر الكتب. وكان يرى أن التبجيل الذي يوليه العرب للقرآن ليس له ما يبرره. ويعطي حواره مع ابن سعود حول القرآن الكريم انطباعًا بتزايد اهتمامه بالقرآن يومًا بعد يوم، ولكننا لا نستطيع التأكد من حقيقة هذا الاهتمام؛ فربما كان ذلك جزءًا من مخطط كبير قام بتدبيره في سبيل أن يحظى بولاء ابن سعود.

لقد نظر هؤلاء الرحالة إلى النموذج الثقافي الذي أحدثه الدين الإسلامي ونهج الحياة التي شكلته قوته الفاعلة بازدراء. صحيحٌ أنه كان هناك بعض الآراء العارضة في صالح الثقافة العربية الإسلامية، إلا أنها ركزت بصورة رئيسية على مظاهر الحياة في الجزيرة العربية، والتي كانت صورتها البهية معروفة بالفعل للشعوب الأوروبية التي كانت تسعى إلى إرساء فكرة سموهم على أتباع الإسلام. ومن هنا، كان تركيز روايات هؤلاء الرحالة البريطانيين علي موضوعات بعينها، مثل العبودية، ووضع المرأة، وتعدد الزوجات، والانحرافات الجنسية المزعومة لدى العرب.

إن صورة العالم العربي كما أحدثتها هذه الرحلات، هو أنه منطقة لا تزال مؤسسة الرق القديمة قائمة بها، وحيث لا يُنظر إلى المرأة إلا باعتبارها مجرد مصدر للمتعة الجنسية للرجال، وحيث كانت الغاية الوحيدة للحياة هي الانغماس في الملذات الجنسية، وحيث كان كل خرافي أمرًا واقعًا يكاد يكون ملموسًا. ولكن من المؤكد أن هذه الصورة تختلف تمامًا عن واقع العالم العربي، كما أنها أدنى بكثير من حقيقته التي يدركها كل ملاحظ عادل. إن الصورة العامة للعالم العربي، والتي يستخلصها القارئ من هذه الكتب، هي لمجتمع تسود به ظاهرة تعدد الزوجات، يعج بالشذوذ الجنسي، والجواري، والخليلات، والعاهرات اللاتي تمارسن تجارتهن في الأماكن المقدسة، كما نجد أن أرواح الموتى، والأشباح، والجان يجعلون وجودهم أمرًا ملموسًا. ولا تختلف هذه الصورة

للجزيرة العربية كثيرًا عن تلك التي رسمها الخيال الأوروبي في العصور الوسطى، إلا أن ما يميز هذه الروايات المتأخرة عن الكتابات الأوروبية السابقة حول الجزيرة العربية والإسلام هو كيفية تناولها لهذه الموضوعات القديمة. لقد تجنبت التشويهات من أمثال التصور الغربي الشائع بأن "محمدًا" هو اسم لصنم كان يعبده المسلمون، أو أنه هو نفسه قد ابتدع هذا الدين، أو أن الحياة الشهوانية التي كان يؤيدها هي التي جذبت الناس إلى اعتناق الإسلام؛ وذلك لأنها فقدت مصداقيتها مع تزايد معرفة الغرب عن الإسلام. ومع ذلك، فقد تم تقديم عدد من المفاهيم الثانوية الخاطئة؛ وذلك من أجل تسليط الضوء على هذه الصورة عن الجزيرة العربية التي يفترض أن تناسب أهدافهم، كما تم إضافة بعض الموضوعات الجديدة، مثل الشعائر الخرافية المفترضة المتعلقة بطرق العبادة الإسلامية، وتم كذلك توظيف علوم جديدة مثل علم الإنسان من أجل وصف العالم العربي بالاستعانة بمصطلحات علمية زائفة.